أدبيات التسامح في التراث الإسلامي(*)

د. وجيهة محمد مرزوق(*)

التسامح التزام أخلاقى يوجبه الدين الإسلامى على كل مسلم ومسلمة ، وهو من القضايا الحضارية الهامة التى أثارت نظر الفلاسفة والسياسيين والمفكرين الدينيين عبر العصور، والتي أصبح لها مكانة خاصة فى الفكر الفلسفي الحديث، لما لها من دور فعال وأثر قوي في العلاقات الداخلية على مستوى الأفراد فى المجتمع ، وكذلك فى العلاقات الخارجية على المستوى الدولي. فالتسامح خلق ينبع من سلوك الإنسان ، ويوجه حركته الاجتماعية والعالمية ، وهو فى ذات الوقت يتأثر بالتنظيم السياسي والقيم الاجتماعية والدينية للأمة .

وتعبر حقيقة التسامح أن عن مسؤولية حضارية على درجة كبيرة من الحساسية والخطورة فى آن واحد ، إذ أن اختلاف العقيدة أو الفكر فى المجتمع الديمقراطي المعاصر لا يجوز أن يؤدى إلى التعصب لما عليه بعض أفراد المجتمع ضد الآخرين ، وقد اهتمّ الإسلام بهذا الأمر اهتمامًا خاصًا ، إذ نصت تعاليمه على الأسس النظرية العامة التى تحث على التسامح ، كما نصت على الوسائل العملية لممارسة التسامح فى المجتمع الإنسانى .

وفى تراثنا الإسلامى يجد الباحث أن جوهر العلاقات سواء أكانت بين المسلمين بعضهم البعض أم بين المسلمين وغير المسلمين تقوم على أساس احترام التعددية فى كل أشكالها ، وفى كل مظاهرها ، فهى تطالب المسلم بالتعامل مع الآخرين بالسماحة، سواء أكانوا متفقين معه أم مختلفين عنه : فى الدين ، أو المذهب ، أو الجنس ، أو اللغة ، أو الفكر ، وغير ذلك مما يمكن أن يكون فيه الاختلاف بين البشر ؛ فهى فى مجملها تطلب من المسلم أن ينظر إلى الآخرين نظرة احترام يستطيع من خلالها أن يتعامل معهم تعاملاً إنسانيًا شريفًا ؛ ليحققوا جميعا هدف وجودهم العمرانى . وهذا ما يتبين لنا بالنظر إلى بعض التشريعات الإسلامية التى تقوم على أصول من القرآن الكريم ، وتستند إلى دلائل من السنة النبوية الشريفة وتدعمها السيرة النبوية، وتؤكدها حقائق تاريخية يشهد بها تاريخ الحضارة الإسلامية ، منها :

- الإيمان بوحدة النوع الإنسانى ومبادئ المؤاخاة والمساواة.
- العفو أساس أخلاقيات المجتمع الإسلامى .

(*) محاضر لغة عربية بكلية التربية للبنات بعفيف ، المملكة العربية السعودية .

- العدل فى معاملة الأعداء فى الإسلام .
- عهد الموادعة ومفهوم السلم الاجتماعي.
- توازنات التسامح فى الجانبين المادي والروحي فى تاريخ الحضارة الإسلامية.

* * *

الإيمان بوحدة النوع الإنسانى ومبادئ المؤاخاة والمساواة:

إن وحدة النوع الإنسانى ترجع إلى الارتباط بين البشر جميعًا ، فى وحدة النشأة فكلهم لآدم ، وآدم خُلق من تراب: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر:٢٨) وقد كرم الله ـ سبحانه وتعالى ـ الإنسان ، وخصه دون الملائكة بل دون سائر المخلوقات بالخلافة فى الأرض : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠) ، ولكن الملائكة لم تكن لتتفهم هذا الأمر؛ وذلك لأنه يفوق مدى إدراكها وإحاطتها بحكمة العناية الإلهية ، فهى ترى أنها أحق من الإنسان بالخلافة بقولها : «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» ، فهى تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية ، وهو الحكيم الذى لا يفعل إلا الخير ، ولا يريد إلا الخير[1] .

ويأتى الرد الإلهى على الملائكة موضحًا وجه التفضيل للإنسان عليها، وهو العلم الذى خص به البشر وحدهم على سائر المخلوقات : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة:٣١-٣٣) .

فالبشر جميعًا من حيث أصل النشأة الأولى يتساوون في:مادة النشأة «التراب» ، وفى السيادة فى الأرض «الخلافة»، وفى خصوصية العلم بين الكائنات جميعًا.

هذه النشأة هى التى تعمق فى النفس الإنسانية حقيقة أنه لا تمييز بين البشر ولا أفضلية ؛ وبهذا تصبح وحدة النشأة قاعدة سلوكية إنسانية تلغي الفوارق بين الإنسان وأخيه الإنسان ، مهما اختلفت القبائل والشعوب والأمم ، فالإنسان ليس سوى عضو فى أسرة الإنسانية الكبيرة التى تبدأ بالأب آدم والأم حواء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

---

(١) الزمخشري، محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي، «الكشاف»، دار الفكر العربي١٩٧٧م ،ج ١ ، ص ٦١.

اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١) . ولن يستطيع الإنسان تحقيق هذه النظرة إلى الآخرين إلا بالتسامح . وقد أرسى الإسلام من الدعائم ما يكفى لحماية أواصر هذه الأخوة الإنسانية ، وسلك فى ذلك مسلكين :

المسلك الأول: تأكيد الأخوة بين المسلمين بعضهم البعض ، وقد أكد النبي - ﷺ - ذلك بقوله : «إنما المؤمنون مثل رجل - أو كرجل - واحد ، إذا اشتكى عيناه اشتكى كله ، وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله» [١] ، فالنبى عليه الصلاة والسلام يجعل العلاقة بين المسلمين ، مساوية للعلاقة بين أعضاء الجسد الواحد، ومثلما يتداعى ويتألم سائر الجسد إذا أصاب أحد أعضائه مكروه ، ويتحرك بحركة شعورية تلقائية، للمشاركة والتخفيف ، كذلك يتألم سائر المسلمين إذا أصاب أحدهم مكروه ، ويتحركون بنفس الحركة الشعورية التلقائية، ومثلما تهدف الحركة فى الحالة الأولى إلى المشاركة والتخفيف، فإن الحركة فى الحالة الثانية أيضا تهدف إلى المشاركة والتخفيف وكذلك يتألم سائر المسلمين إذا أصاب أحدهم مكروه، ويتحركون بنفس الحركة الشعورية التلقائية، ومثلما تهدف الحركة في الحالة الأولى إلى المشاركة والتخفيف، فإن الحركة الثانية أيضًا تهدف إلى المشاركة والتخفيف. وقد جسد النبي - ﷺ - هذه المشاركة التلقائية بقوله : «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا. وشبك بين أصابعه»[٢] .

وكان أعظم شاهد على ذلك ، بل أول شاهد على ذلك حفاوته عليه الصلاة والسلام بالأخوة الإسلامية ، تلك المؤاخاة التى عقدها بين المهاجرين والأنصار، والتى تمثل الركيزة الأولى فى تأسيس الدولة الإسلامية بعد هجرته وفور دخوله المدينة ، بقوله : «تآخوا في الله أخوين أخوين» [٣]. ثم أخذ النبى ﷺ يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ، وفي ذلك يروي ابن هشام فى سيرته النبوية: «كان حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله ﷺ ، وعم رسول الله ﷺ ، وزيد بن حارثة ، مولى رسول الله ﷺ أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد ... وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ابن أبي قحافة، وخارجة بن زهير ، أخو بلحارث بن الخزرج أخوين... » [٤] . واستمر عليه الصلاة

---

(١) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، كتاب الآداب دراسة وتحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، باب التعاون على البر والتقوى ، ص ٨٨ .

(٢) نفسه ، ص ٨٨ .

(٣) أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ، السيرة النبوية ، مراجعة لجنة من العلماء ، مطبعة الأنوار المحمدية ، ١٩٩١م ، ج٢ ، ص١٠٧ .

(٤) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

والسلام يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ؛ ليعلم الناس أن الأخوة في الإسلام هى أخوة في الله تهدف إلى تحقيق المنهج السماوي الذى ينظر إلى الناس جميعًا على أنهم يتساوون فى إنسانيتهم ، وأنه لا تمييز ولا أفضلية بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح .

أما المسلك الثانى : فإنه يتعلق بتأكيد الأخوة بين المسلمين وغير المسلمين ، وهذه الأخوة العامة فى حقيقتها مكملة للأخوة الخاصة التى أقامها الإسلام بين المسلمين بعضهم البعض ؛ وذلك لأنها موجهة لتحقيق المصلحة للمجموع ، فالمجتمعات البشرية تضم أجناسًا متعددة ﴿... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا ءَاتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(المائدة : ٤٨) .

وتتبين لنا أهمية هذه الأخوة العامة حين يقوم الإنسان بدوره فى الاجتماع والقضاء والسياسة ؛ لأنه بطبيعة الحال لن يكون منفردًا، وإنما هو مرتبط بالآخرين الذين يقومون معه بنفس الرسالة فى العمران ، وهنا يكون التعارف بهم والتداخل معهم قاعدة ملزمة ؛ لأن التعارف هو الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها تحقيق التعاون، وقد أكد هذا المعنى كثير من رجال الدين ، فنجد الدكتور محمود حمدى زقزوق يقول: «ولقد اقتضت حكمة الله فى خلقه أن جعل الناس مختلفين فى ألوانهم وألسنتهم ومداركهم وتصوراتهم ، ولكن الله جل شأنه لم يرد أن يكون هذا الاختلاف بين الناس مدعاة إلى النزاع والشقاق ، بل جعله دافعا إلى التآلف والوئام ... وهذا التعارف من شأنه أن يكون مبنيًا على الاحترام المتبادل والفهم المتبادل ، ومؤديًا إلى التعاون المشترك» [(١)] ، فبدون التعاون لا يمكن أن يقوم الإنسان بوظيفته فى الخلافة ؛ فهذا الغرض لا يمكن أن تفي به القدرات الفردية ، سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات أو الدول ، وهنا تكون الأخوة العامة هي الضمان لحفظ أواصر تلك العلاقة الإنسانية.

مبدأ المساواة فى الإسلام: إن مبدأ المساواة فى الإسلام تتجلى مظاهره أكثر ما تتجلى فى العدل المطلق ؛ فمن منطلق الإخاء الإنسانى الذى تتحقق به الوحدة الإنسانية ، جاء الإسلام بمبدأ العدل ؛ ليحفظ الأمن والاستقرار بين الناس جميعا ، والقرآن الكريم يأمر المسلمين بالعدل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(النساء:٥٨) ، فالمسلمون عليهم أن يقيموا عدلهم بين الناس جميعًا، على

---

(٤) د. محمود حمدي زقزوق، سلسلة إعادة نشر تراث التقريب بين المذاهب الإسلامية ، العدد الثاني ، ١٩٩٤م ، ص٥.

أساس الأخذ بالحق والابتعاد عن الهوى ؛ ذلك أن العدل فى الحكم بين الناس هو «تحري المساواة والمماثلة بين الخصمين ، والمسلمون مأمورون بالعدل فى الأحكام والأقوال والأفعال والأخلاق» (١) .

ولم تكن إقامة العدل داخل المجتمع الإسلامي فى عهد النبوة بالأمر الذى يسهل على العرب قبوله وتنفيذه بهذه الصورة ؛ لما درجوا عليه من تقديم فروض العزة للسادة والنبلاء ، فقد روي عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : «إن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت، فقالوا: مَن يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة، حِب رسول الله ﷺ ؟ فكلمه أسامة فقال رسول الله ـ ﷺ ـ أتشفع فى حد من حدود الله ؟، ثم قام فاختطب فقال: أيها الناس! إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »(٢) .

وكانت نتيجة محاولتهم غير موفقة؛ لأن ذلك أغضب رسول الله ﷺ ، فقام وخطب فيهم مؤكدًا لهم أن مبدأ العدل لا هوادة فيه ، وأن السارقة لو كانت ابنته لأقام الحد عليها؛ لأن المحاباة فيه تؤدي إلى الهلاك وضياع الأمم ، «فقد مضت سنة الله العادلة فى خلقه بأن جزاء ترك العدل وعدم إقامة القسط في الدنيا هو ذل الأمة وهوانها ، واعتداء غيرها من الأمم على استقلالها ، ولجزاء الآخرة أذل وأخزى ، وأشد وأبقى . قال نبينا ـ ﷺ ـ : إذا ظُلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو» (رواه الطبرانى عن جابر رضي الله عنه) (٣) .

وبمبدأ العدل هذا يقر الإسلام معنى التسامح فى نفوس المسلمين ؛ فتساويهم فى القيمة الإنسانية معناه أيضًا تساويهم أمام القوانين التى تحكم علاقاتهم الاجتماعية ، فالتشريع الإسلامى يقرر مبدأ العدل للأشخاص على أنهم أفراد فى أسرة إنسانية واحدة، ومن هذا المنطق يأمر الله المؤمنين بالعدل حتى ولو كان على أنفسهم :﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ... ﴾ (النساء : ١٣٥) .

---

(١) الشيخ محمد رشيد ، «تفسير المنار»، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٣٦٧هـ ، ج ٥ ، ص ١٧٤ ، ١٧٩ .

(٢) «صحيح مسلم» ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب الحدود ، باب قطع السارق الشريف وغيره ، والنهي عن الشفاعة في الحدود ، ص ١٣١٥ .

(٣) الشيخ محمد رشيد رضا ، «تفسير المنار» ، ج ٦ ، ص ٢٧٤ .

ويتسع نطاق العدل فى الإسلام ، فيكلف الله المسلمين باتباعه مع أعدائهم : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة:٨) فهذه الآية الكريمة تحدد للمسلمين الآداب العامة ، والمبادئ الخلقية التى يجب عليهم الإتيان بها فى المجتمعات التى يعيشون فيها مع الجميع حتى مع أعدائهم .

وقد أعد الله تعالى المسلمين بهذه الفضائل الخلقية ، والتي هي الأساس الذي يقوم عليه العدل فى المجتمع ؛ ليستطيعوا فى النهاية القيام بالتكليف الأكبر ، وهو إقامة العدل مع أعدائهم ؛ فهم مأمورون أولا بأن يكونوا «قوامين لله » ومأمورون ثانيًا بأن يكونوا «شهداء بالقسط» ، أى بإقامة العدل فى مجتمعاتهم ؛ وذلك أيضًا بهدف حفظ الحقوق ، وتوثيق الروابط الاجتماعية بين كل من يضمه المجتمع الإسلامي، «فالشهادة بالقسط معروفة، وهى أن تكون بالعدل بدون محاباة مشهود له ولا مشهود عليه ، لا لقرابته وولائه ، ولا لماله وجاهه ، ولا لفقره ومسكنته . فالشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به ، أو إظهاره هو إياه بالحكم به ، أو الإقرار به لصاحبه. والقسط هو ميزان الحقوق متى وقعت فيه المحاباة والجور لأى سبب أو علة من العلل زالت الثقة من الناس ، وانتشرت المفاسد وضروب العدوان بينهم ، وتقطعت روابطهم الاجتماعية ، وصار بأسهم بينهم شديدًا»[١] .

ثم يتأكد هذا الأمر الإلهي بنهي المسلمين وتحذيرهم عن الجور بالحياد عن العدل «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله» ، فكما رأينا كان يكفي المسلمين الأمران السابقان لإقامة العدل وتحري الحق فى مجتمعاتهم، ولكن هذا التحذير يقف حائلاً أمام من قد يدفعه ظلم الأعداء وحقدهم إلى عدم إقامة العدل معهم «ولا يكسبنكم ويحملنكم بغض قوم وعداوتهم لكم أو بغضكم وعداوتكم لهم على عدم العدل فى أمرهم ، بالشهادة لهم بحقهم إذا كانوا أصحاب الحق ، ومثلها هنا الحكم لهم به ، فلا عذر لمؤمن فى ترك العدل وإيثاره على الجور والمحاباة ، وجعله فوق الأهواء وحظوظ الأنفس ، وفوق المحبة والعداوة مهما كان سبيلهما . فلا يتوهمن متوهم أنه يجوز ترك العدل فى الشهادة للكافر ، أو الحكم له بحقه على المؤمن . ولم يكتف بالتحذير من عدم العدل مهما كانت أسبابه والنية فيه ، بل أكد أمره بقوله «اعدلوا هو أقرب للتقوى» أي قد فرضت عليكم العدل فرضًا لاهوادة فيه ، اعدلوا»[٢] .

---

(١) الشيخ محمد رشيد رضا ، «تفسير المنار» ، ج ٦ ، ص ٢٧٣ .

(٢) نفسه ، ص ٢٧٤ .

ولولا التسامح الإنسانى الذي رسخت تعاليم الإسلام مبادئه فى نفوس المسلمين ما استطاعوا الوفاء بمثل هذا العدل مع أعدائهم؛ لأن هذا أمر شاق يفوق قدرة الإنسان. ولما كان التسامح فى إقامة العدل مع الأعداء بهذه المشقة فقد ربطه الله ـ سبحانه وتعالى ـ شأنه بتقواه ورضاه عنهم ؛ ليستطيعوا الإتيان به : « اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله» .

* * *

العفو أساس أخلاقيات المجتمع الإسلامي :

يُعد العفو فى العلاقات الاجتماعية إصلاحًا، وضرورة تتطلبها طبيعة الاجتماع الإنساني، فالإنسان غير معصوم من الخطأ ؛ لعدم قدرته فى كل حال على الاحتفاظ بالتوازن السليم ، مما يحتم ظهور خلافات ومنازعات داخل البناء الاجتماعي فى كل المجتمعات البشرية . فالعفو يدعم الروابط الإنسانية داخل المجتمعات البشرية ؛ وذلك من خلال الجمع بين الذات الفردية والجماعية في قالب إنساني واحد تتحقق معه وحدة الإنسانية وجوهر وجودها ، «فكما أن للعفو أثره في نفس من يعفو، حيث يعينه على التقوى ، وعلى راحة الضمير وسكينة النفس فإن له كذلك أثرًا بالغًا فيمن يعفو الإنسان عنه ، إنه يستشعر خطأه وإساءته ، ويرى كيف قوبل خطؤه بالعفو والإحسان ، فيثوب إلى الرشد والصواب ، وتنطفئ من داخله الكراهية وتذوب النزعة العدوانية »[1] .

ولكن العفو ليس بالأمر الهين الذى يستطيعه الجميع؛ ذلك أن العفو عند البشر موقف يقدر عليه البعض ولا يقدر عليه الآخرون ، والإنسان يأخذ هذا الموقف فى الحالة التي يستطيع فيها أن يتحكم في ضبط نفسه ، حيث يسمو بها إلى مرتبة أعلى من مرتبة كظم الغيظ؛ لأن كتم الغيظ قد يكون على حقد وضغينة مصداقا لقوله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣-١٣٤) .

وقد وضح الدكتور عبد الحليم محمود فى سياق هذه الآية الكريمة المراحل التي يتدرج فيها المسلم، والتي يستطيع من خلالها أن يسمو بنفسه ويصل إلى مرحلة العفو، فقال : «إن الأخلاق القرآنية تحدد الخلق الكريم فى حده الأدنى ، وترسم الفضيلة فى درجاتها الأولى ، ثم لا يقتصر القرآن على ذلك ، وإنما يرسم القمم من مكارم الأخلاق ، ويوجه إلى السنام منها ، ويقود إلى المشارف العليا من درجات المقربين .

---

(١) د . أحمد عمر هاشم ، «في ظلال الشريعة الإسلامية» ، مطبعة الكليات الأزهرية ، ص ١٧٥ .

إن مقابلة السيئة بالسيئة عدل ، يقول الله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ ولكن القرآن ـ مع بيان عدالة هذا ـ يذكر درجة أعلى من الخلق الكريم ، تلك هى درجة «كظم الغيظ ». وهذا يأتي في وصف المسلم الذى مع مقدرته على مقابلة السيئة بالسيئة، يكظم الغيظ ، وهذا أسمى فى ميزان الأخلاق الكريمة من الذي يقابل السيئة بالسيئة.

ولا يقف القرآن الكريم عند هذا الحد؛ ذلك : أنه يرسم درجة ثالثة من الخلق الكريم ، وذلك أنه يتجاوز «مقابلة السيئة بالسيئة»، و «كظم الغيظ» إلى «العفو» والعفو مع المقدرة أسمى من مقابلة السيئة بالسيئة ، وأسمى من كظم الغيظ .

ثم يتجاوز القرآن ذلك كله ، إلى الدرجة العليا ، درجة المقربين، وهى «الإحسان». يقول الله تعالى « والله يحب المحسنين»، إنها درجات من الخلق الكريم كلها كريمة، بيد أنها تتفاوت ، فيما بينها ، من كريم إلى أكرم ، كتفاوت الناس فى الشرف من شريف إلى أشرف»[1] .

وهذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم للعافين عن الناس فيها حث لهم عليه، وتأكيد على ضرورته فى بناء المجتمعات الإنسانية ؛ لأنه من المحتم وقوع خلافات ومنازعات بين البشر ؛ نظرا لوجود أنماط مختلفة من السلوك داخل الجماعة الواحدة، ووسط هذه الاختلافات ، وما قد ينشأ عنها من المنازعات ، لو أراد كل طرف من الأطراف الأخذ بحقه كاملا من الطرف الآخر لتحولت الحياة إلى جمرة مشتعلة من النيران. ومن هنا فإنه لا يمكننا القول بوجود معايير أخلاقية ثابتة مثل الثواب ـ وهو من المعايير الإيجابية ـ ، والعقاب ـ وهو من المعايير السلبية ـ ، يجب أن تحكم سلوكيات الأفراد فى المواقف المتنوعة داخل المجتمعات؛ لوجود صراعات مستديمة بين المثل الأعلى للإنسان والمثل الأعلى للمحيطين به ، والذين هم يقاسمونه الحياة .

فبالإضافة إلى هذه الأنماط الثابتة المبنية على الثواب والعقاب لابد من وجود أنماط أخرى تتمثل فى العفو والتسامح ؛ تحقيقًا للثبات والتماسك، ونشرًا للحب داخل البناء الاجتماعي، فالعفو حين يتأصل فى النفوس يجعلها قادرة على التفاهم والتعايش مع الآخرين ، ويجعلها تعالج نقائصهم بدلا من التصادم بهم ومعاداتهم ، وحين يوجه الإنسان حركته تجاه الآخرين قاصدًا العفو والتسامح معهم فإن الضغينة ستذهب من النفوس ؛ لتحل محلها المحبة ، فيكون الترابط ولا يكون للتفرقة مكان حينئذ .

---

(١) د. عبد الحليم محمود ، سلسلة إحياء المفاهيم الإسلامية ، الإسلام والإيمان ، العدد الثاني . دار النصر للطباعة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩م .

ولما كان العفو يتطلب من الإنسان أن يتنازل عن بعض من حقوقه فى مواقف معينة من الانفعال تحقيقًا لمصلحة البناء الاجتماعى أصبح أمرًا محتملاً ألا يستطيعه الجميع؛ فالعفو «ليس أصلا فى المعاملة بين الناس لأنه قدر زائد على العدالة ، بل هو ظلم بالفعل : ظلم المرء لنفسه بالتجاوز عن حقه ؛ وإنما نسمي هذا الظلم «عفوًا»؛ لأنه اسم جميل لهذا الظلم النبيل» [1] . من أجل ذلك لم يفرضه الله تعالى ، بل رغب فيه أو ندب إليه بوسائل شتى حيث نجد أن آيات العفو قد جاءت فى أروع ما تنطق به الأساليب المرغبة النادبة تحاشيًا لإثارة روح العناد في نفوس البشر؛ لتقبل عليه النفس الإنسانية بذاتها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة :١٠٩) . فالله تعالى يعدهم بأنه سيخفف عنهم ما يتحملونه. وقوله تعالى :﴿...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة : ٢١٩) . فالله تعالى يجعل العفو من وجوه الإنفاق فى سبيله . وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النور:٢٢) .فالله تعالى يعدهم بأنه سيرحمهم ويغفر لهم ذنوبهم ، مقابل عفوهم عن الآخرين .

وإذا انتقلنا إلى السيرة النبوية نجد أن النبي ـ ﷺ ـ له مواقف فى ذلك لا تحصى ، وكل منها يعطينا أعظم الأمثلة على حرصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على العفو والتسامح، ومن هذه الأمثلة التي تؤكد اختيار النبي ﷺ للعفو، وبعده حتى عن مجرد الرغبة فى العقاب والانتقام ما فعله مع أهل مكة الذين آذوه وشردوه ليس إلا لعقيدة التوحيد التي دعا إليها . فعندما جاء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لدخول مكة أعلن المسلمين وأمراء الجيوش بما يريد، وألزمهم به. فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يريد القتال ؛ لذلك «أمنّ رسول الله ـ ﷺ ـ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين»[2]؛ وهنا أصبح لزامًا على الأمراء والمسلمين أن ينفذوا وصية رسول الله، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم باستثناء هؤلاء الستة . فقد كان لكل واحد من هؤلاء الستة قصة معروفة فى نقض العهد ، والسخرية من النبى والمسلمين . وحتى هؤلاء الستة نال بعضهم نصيب من عفو

---

(١) د . مهدي علام ، «العفو في الإسلام» ، صحيفة دار العلوم ، المدد الأول ، ١٩٣٨م ، ص ٧١ ، ٧٢ .

(٢) أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ، «البداية والنهاية» ، تحقيق أحمد فؤاد فتيح ، دار الحديث ، القاهرة ١٩٩٤م، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

الرسول الكريم ؛ فقد عفا النبي - ﷺ - عن اثنين منهم ، وهما : عكرمة، وعبد الله بن أبي سرح[١] ، لقد كان من حق النبي - ﷺ - أن يأخذ بحقه من أهل مكة دون انتقام أو زيادة فى ذلك مصداقًا لقوله تعالى :﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل:١٢٦) . ولكنه - ﷺ - أراد أن يعلم المسلمين أعظم درس فى القيادة السمحة الحكيمة التي لا تطبق حتى المثلية فى أمر العقوبة .

إن هذا الموقف يكشف لنا عن شخصية القائد السمحة التي لا يعرف الانتقام إليه طريقًا ، وكيف يكون ذلك ، ومن أين يأتى مع نبي كان خلقه القرآن الكريم، ومع نبي أخذ يعلم المسلمين أن العفو قوة ومقدرة ترفع مكانة الإنسان، وهو يقول: «ما نقصت صدقة من مال . وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا . وما تواضع أحد لأحد إلا رفعه الله»[٢] ؛ ليغرس فى نفوسهم مفهوم العفو الذى ينبع من سلوك الإنسان ، ويوجهه في التعامل مع الآخرين لما فيه صالح الإنسانية . إنه العفو الذى ينبع من الأحكام الاعتقادية ويدخل فى الأحكام العملية ، وكما أن الله سبحانه وتعالى لم يفرض العقائد على الإنسان وإنما جعله يعمل عقله للوصول إليها واعتناقها ؛ لتكون قوية راسخة فى قلبه ، كذلك كان الحال مع العفو فلم يفرضه على الإنسان .

* * *

العدل فى معاملة الأعداء فى الإسلام

على الرغم من أن الحرب التى شرعها الإسلام هى الحرب الدفاعية ، فإننا نجد آيات القتال في القرآن الكريم ترتبط كلها بالتقوى فى معاملة الأعداء، فهى تهدف إلى وقف العدوان فحسب، وهى تبعد المسلمين تمامًا عن كل معنى من معاني الانتقام، وفى هذه المعانى الأخلاقية العظيمة نجد :

- قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة:١٩٠). وقد اقترن هذا الأمر الإلهي بمبدأين يحددان للمسلمين الأصول التي تحكم الحرب التى أذن الله بها ، الأول منهما : النهى عن الابتداء بالقتال دون مشروعية «فالاعتداء يكون بابتداء القتال، أو بقتال من نهيتم عن قتاله من النساء والشيوخ والصبيان والذين بينكم وبينهم عهد، أو بالمثلة، أو بالمفاجأة من غير دعوة»[٣]

---

(١) راجع «البداية والنهاية »، لابن كثير ، تحقيق أحمد فؤاد فتيح ، دار الحديث ، القاهرة ١٩٩٤م ، ص ٢٩١ .

(٢) الإمام مسلم ، «صحيح مسلم» ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ج ٤ ، كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع ، ص ٢٠٠١ .

(٣) الزمخشري ، «الكشاف» ، ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

والثاني منهما: النهى عن الاعتداء على المنتهين ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ (البقرة: ١٩٣) أى فلا تعتدوا على المنتهين لأن مقاتلة المنتهين عدوان وظلم[١].

- وقوله تعالى : ﴿ ... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة:٢) . فهذه الآية الكريمة تحدد لنا مبدأ ساميًا من مبادئ الدين الإسلامي الذى يعمل على خلاص المسلمين من آفة الحقد والكراهية حتى مع أعدائهم، فهي تنهي المسلمين «عن استئناف الاعتداء على سبيل الانتقام ، فإن من يحمله البغض والعداوة على الاعتداء على من يبغضه يكون منتصرا لنفسه لا للحق ، وحينئذ لا يراعي المماثلة، ولا يقف عند حدود العدل» [٢] .

- وقوله تعالى : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:١٩٤) . فالله سبحانه وتعالى يأمر المسلمين بالعدل مع هؤلاء الأعداء المشركين، لأن المثلية هنا تعنى المساواة وعدم الجور «والقصد أن يكون الجزاء على قدر الاعتداء بلا حيف ولا ظلم ... وإلا فاتت الحكمة لشرعية القتال وهى منع الظلم والعدوان ، والفتنة والاضطهاد ، وتقرير الحرية والأمان ، والعدل والإحسان . وهذه الشروط والآداب لا توجد إلا فى الإسلام» [٣] .

- وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨)، فالله سبحانه وتعالى يخبر المسلمين في هذه الآية «أنه لا ينهى عن البر والعدل وحسن المعاملة للمشركين الذين لم يشتركوا في قتال المسلمين ولا اضطروهم إلى الخروج من مكة . وقد استحال هذا البر لغير المسلمين فى عصر الفتوح وبعده - على مر الزمن حتى اليوم - قانونًا عامًا للمسلمين في تعاملهم مع أصحاب الملل الأخرى المسالمين لهم تعاملا سمحًا كريمًا، سواء أكانوا من أهل الكتاب أو وثنيين من الصابئة والمجوس وأمثالهم من الوثنيين فى آسيا وأفريقيا . والله - بذلك - وضع للمسلمين قواعد مُثلى فى تسامحهم مع كل الديانات ومع كل الأقوام ومع كل الأجناس والأعراق والألوان »[٤] .

---

(١) الزمخشري ، «الكشاف» ، ص ٢٤٢ .

(٢) الشيخ محمد رشيد رضا ، «تفسير المنار» ، ج ٦ ، ص ١٢٩ .

(٣) «نفسه» ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

(٤) د. شوقي ضيف ، «عالمية الإسلام» ، مكتبة الأسرة ، دار المعارف المصرية ، ص ٩٥ .

وبهذه الفضائل العالية، وبتلك التقوى الإسلامية، وبهذا التسامح المتأصل فى وجدان الرسول - ﷺ - كان يوم فتح مكة ؛ فعلى الرغم من الصورة التى خرج بها النبى والمسلمون من مكة : ﴿ ...رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء:٧٥) ، مهاجرين عبر الصحراء والفيافي، تاركين أوطانهم لمجرد عقيدة اعتنقوها مخالفة لما كانوا عليه من الشرك، فقد دخلوا مكة بالمسامحة والمسالمة ، وقد تجلت مظاهر هذا التسامح أول ما تجلت فى خطبة النبي - ﷺ - التي قالها فى المسلمين عند باب الكعبة، والتي منها قوله: «يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خلق من تراب . ثم تلا رسول الله : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[1]. فنبى الإنسانية - ﷺ - بخطبته هذه يعرف المسلمين أنه لا ثأر ولا انتقام في الإسلام ؛ لأن الناس كلهم أخوة ، وأن الإسلام دين السلام .

وعندما دخل النبى - ﷺ - مكة جاءه أبو سفيان فقال : «يا رسول الله أبيدت خضراء قريش . لا قريش بعد اليوم . قال أبو سفيان : قال رسول الله - ﷺ - : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن . ومن ألقى السلاح فهو آمن . ومن أغلق بابه فهو آمن»[2]. وهذا التسامح من النبى عليه الصلاة والسلام لأهل قريش دفع أقرب الأقربين منه ، وهم الأنصار الذين آووا النبي والمسلمين ونصروهم، إلى الاعتقاد بأن النبي حنّ إلى عشيرته التى طردته ؛ حيث قال بعض من الأنصار لبعض: «أما الرجل فأدركته رغبة فى قرابته ورأفة بعشيرته»، وجاء رسول الله - ﷺ - الوحى ، وكان إذا جاءه لم يخف علينا ، فقال . يا معشر الأنصار قلتم كذا وكذا قالوا قد كان ذلك يا رسول الله ، قال : كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم فالمحيا محياكم والممات مماتكم ، فجعلوا يبكون»[3] ، وهذا البكاء إنما هو فى حقيقته ندم لعدم إدراكهم حقيقة هذا التسامح النبوي، وإقرار منهم فى نفس الوقت بهذا الموقف الإنساني العظيم الذي تعلموه من نبي الرحمة .

إن هذا العفو من النبي - ﷺ - عن الذين عذبوا المسلمين ، وقاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم ، يحدد لنا معالم الدين السمح الذى جاء به النبي - ﷺ -، والذى جعله يصفح

---

(١) أبوجعفر بن جرير الطبري ، «السيرة النبوية»، تحقيق جمال بدران ، الدر المصرية ١٩٩٤م ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٢) الإمام مسلم ، «صحيح مسلم» تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب الجهاد والسير ، باب فتح مكة ، ص ١٤٠٨ .

(٣) أبو الحسن البلاذري ، «فتوح البلدان» ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨٨م ، مراجعة رضوان محمد رضوان ، إشراف لجنة تحقيق التراث ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

هذا الصفح الكريم ، فإذا استعرضنا أبطال التاريخ من أوله إلى آخره لم نجد رجلاً واحدًا وقف من أعدائه هذا الموقف الكريم ، فقابل الإساءة العاتية بالعفو العظيم والتسامح الكريم «نعم ، ليس في التاريخ كله موقف بلغ من السماحة ما بلغه هذا الموقف ، ولا صورة بلغت من السمو ما بلغته هذه الصورة؛ لأنه ليس فى الناس كلهم بشر بلغ من الكمال الإنساني ما بلغه محمد رسول الله . ليس عجبًا إذا أن يقف رسول الله من أعدائه هذا الموقف الفريد في التاريخ ، فلم يكن - ﷺ -ملكًا ولا قائدًا، ولم يكن يرمى إلى ما يرمي إليه الملوك والقواد من إرضاء شهوات النفوس ونزعات الهوى ، إنما كان رحمة من الله أرسلها إلى عباده»[1] .

وقد فتح هذا التسامح قلوب العرب الجامدة الجاحدة ، على الخير الشامل ، والنور الأعظم ؛ فدخلوا في دين الله أفواجًا ، فقال الله تعالى :﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (سورة النصر) . فكان في تسامح النبى - عليه الصلاة والسلام - مع أهل مكة ما يغني عن القتال واستمرار العداوة بينهما ، وما يطفئ نار الكراهية ، وما يحقق الأمن والاستقرار لمجموع أهل مكة من المسلمين والقرشيين؛ ليمارسوا وظيفتهم فى الدعوة إلى السلام ونشر نور الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعمران الحياة على وجه جديد لم تعرفه البشرية من قبل .

* * *

عهد الموادعة ومفهوم السلم الاجتماعي:

وضع النبى - ﷺ - الأسس العريضة التى يجب أن تقوم عليها المجتمعات الإنسانية بعد قدومه إلى المدينة واستقراره بها بفترة قصيرة، فقد كانت المدينة عند مقدم الرسول - ﷺ - تضم عناصر لا يربطها نظام ولا وحدة ولا وفاق ، فكتب - ﷺ - كتابًا - أو دستورًا - لتنظيم العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع السياسي الجديد. وبالإضافة إلى التنظيمات التي تضمنها هذا الدستور، فإنه يتضمن «الالتزامات المعنوية والمادية التى يتطلبها الدخول فى الأمة حتى يدخل فيها من يريد الدخول على بينه. وحتى يعلم أنه بدخوله هذا يدخل فى أمة وعهد وعقد، بل يدخل فى عصر جديد من حياته لا علاقة له بما مضى من عمره »[2] . وباستقراء نصوص هذه الوثيقة[3] التى سنها الرسول - ﷺ - لأمته نجد أنها اشتملت على أهم القواعد التنظيمية الكافية لتوفير وحفظ السلم الاجتماعي، فهي تتضمن:

---

(١) أمين دويدار، «صور من حياة الرسول» ، دار المعارف المصرية ، ١٩٥٣م، ص ٥٤٠ .

(٢) د . حسين مؤنس ، «دستور أمة الإسلام» ، الهيئة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ١٩٩٨م ، ص ١٠١ .

(٣) انظر موسوعة العلوم السياسية، تصدير شعيب عبد الله شعيب ، الكويت ١٩٩٤م ، ص ٢٤٠-٢٤١.

- **تقرير وحدة الأمة:** فالمؤمنون والمسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم «أمة واحدة من دون الناس ... وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين» ولعل هذه هي المرة الأولى التى تظهر فيها لفظة «أمة» فى تاريخ السيرة النبوية. وقد ارتبط مفهوم «الأمة» فى هذه الوثيقة ارتباطًا وثيقًا بالإطار الجغرافي لدولة المدينة بحيث تضم العناصر التي كانت تعيش آنذاك فوق هذه الدولة الجديدة .

- **تقرير حرية الدين:** فقد أقر عهد الموادعة مبدأ حرية العبادة ، حيث نص على أن «لليهود دينهم وللمسلمين مواليهم وأنفسهم» وقد ارتبط بهذا المبدأ مبدأ آخر وهو اعتبار يثرب حرمًا آمنًا لأهلها «يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة». كما أقر العهد أيضا مبدأ حرية الانتقال» من خرج أمن، ومن قعد أمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم».

-**تأكيد معانى وحدة السلم والفداء** : فقد ورد فى دستور المدينة «أن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم»، وأن اليهود «إذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين» .

-**الأسوة أو العدالة** : ويعتبر مبدأ الأسوة داخل المدينة من المبادئ المهمة التى سجلتها الوثيقة . فإن من تبع المسلمين من اليهود «فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ..والمؤمنون يبيء - من البوأة أي المساواة - بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله» . ولما كانت العدالة من الأمور المهمة للأمن والاستقرار فقد أشارت الوثيقة إلى ضرورة التصدي الجماعي للبغي والظلم «المؤمنون المتقون أيديهم على من بغى منهم أو ابتغى دسيغة ظلم - أي عظيمة ظلم - أو إثما أو عدوانًا أو فسادًا بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم» .

وكما هو ملاحظ فإن أساس المبادئ الواردة بالصحيفة أساس أخلاقي جماعي؛ لأن أخلاقيات أمة الإسلام كلها جماعية، أي أنها روابط أخلاقية كريمة بين أعضاء الأمة، وهذه الأخلاقيات الجماعية تكشف لنا عن جانب كبير من التسامح الذى تضمنه هذا الدستور، والذى ألزم رسول الإنسانية نفسه به وأوجبه كذلك على المسلمين. فكان ينطوى على تسامح عظيم يتفق و فطرة الإنسان واستعداداته، وكان هذا هو الضمان لقبول أهل المدينة لهذا الدستور وتوقيعه، ومن ثم العمل بما جاء فيه؛ ومرجع ذلك لسببين بارزين :

الأول منهما : أنه لم يكن يخاطب المسلمين وحدهم ، على الرغم من أنهم يمثلون

الأغلبية فى مجتمع المدينة ، إنما جاء مخاطبا كل أهل المدينة من مسلمين ومشركين ويهود ، وهذا إشعار لهم ، بل وتأكيد فى نفس الوقت بأن الدولة الجديدة تضعهم فى الحسبان وتسوي بينهم وبين المسلمين ، فقوام العلاقة فى الدولة الإسلامية العدل والمساواة وحفظ الحقوق لكل أبنائها الذين تضمهم؛ والإسلام بذلك وضع قاعدة خلقية قويمة لحفظ الأمن الداخلي والسلم الاجتماعي لكل من يعيشون فى الدولة الإسلامية ؛ فكل من يعيش فى الدولة الإسلامية يصبح عضوًا فعالا فيها تمنحه حقوقه كاملة ؛ ليؤدى بالتالى دوره العمراني. فدولة الإسلام لا تمييز فيها، ولا أفضلية لأكثرية على أقلية ، وإنما التفاضل بالعمل والمشاركة .

والثانى منهما : أن هذا الدستور ألزم كل طائفة فى المدينة ، من الأطراف الموقعة على الوثيقة ، أي «المسلمين و اليهود» بأعباء والتزامات خاصة ضمانًا لتحقيق التكافل بينهم ، وفى نفس الوقت جعل على الأمة تحقيق التضامن الاجتماعى لكل من يحتاجونه ، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، وفى ذلك تأكيد لغير المسلمين بأن حياتهم آمنة فى الدولة الإسلامية الناشئة .

* * *

توازنات التسامح فى الجانبين المادي والروحي فى تاريخ الحضارة الإسلامية

ازدهرت فى العصر العباسي أعظم حضارة إنسانية فى ظل مبادئ التسامح والتواصل الثقافي التي جاء بها الوعى الجديد ، وقد سجلت هذه الحضارة العظيمة نجاحًا عمرانيًا هائلاً، يتأكد لنا من خلاله ضرورة التوافق والتلازم بين الجانبين المادى والروحي؛ ذلك أن «النشاط البشرى وحدة متكاملة ذات جانبين، أحدهما روحي، والآخر مادي ، فالروحي يمد المجتمع بأسباب اليقين النفسي ودواعي الاطمئنان الروحي ، والمادى يمد المجتمع بوسائل الاستعلاء على الطبيعة وتذليلها لإرادته ومشيئته»[1] ، وتتجلى مظاهر هذا التلازم فى اهتمام الأمة الإسلامية بالمعرفة وما تقدمه شعوب العالم من ألوان العلوم والفنون فى آفاقها النظرية والعملية .

وقد ترتب على هذا الاهتمام ظهور حركة الترجمة مبكرًا ؛ وذلك لأن «حركة النقل والترجمة قد بدأت بدايتها الشكلية أيام بني أمية ، وتواصل اهتمام الخلفاء بحركة الترجمة هذه إلى درجة أنهم كانوا ينفقون عليها بسخاء، ومن ذلك على سبيل المثال أننا نجد أن الخليفة المأمون «كان يعطي وزن ما يترجم ذهبًا ، فانهال عليه المترجمون من كل حدب وصوب : من الشام وفارس ، منهم : النساطرة واليعاقبة، والصابئة والمجوس ، والروم والبراهمة ، يساهمون جميعا فى حركة الترجمة من اليونانية والفارسية والسريانية والنبطية واللاتينية ،وغيرها»[1] .

---

(١) د.عصام الدين محمد علي، «بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة»، منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٨٦م، ص ٣٨ .

وهؤلاء المترجمون على اختلاف أصولهم ومذاهبهم إنما تم إسهامهم الجليل فى حركة الترجمة بفضل سماحة ثقافية شجعت علماء الأمة على استقبال كل جديد مهما كان مصدره ما دام نافعًا لحياة الأمة الإسلامية ، وكان العرب يقومون بعملية دراسة واسعة للعلوم والمعارف التي تمت ترجمتها، وهذا يدلنا على مدى وعيهم بذاتهم الحضارية وتراثهم الديني الخاص؛ وذلك لأنهم «قد درسوا هذا التراث اليونانى ، وعلقوا عليه ، وشرحوه ، وأضافوا إليه ملاحظاتهم ، وانتقدوه فى مواضع كثيرة ، وأضفوا عليه فى كثير من الأحيان مسحة إسلامية إشراقية خاصة بقدر ما مكنتهم ظروف العصر ، وأمانة النقلة السريان ، وضبطهم . وهكذا حمل العرب الفلسفة القديمة إلى العالم الحديث، فأعطوه المفاتيح الفكرية لعصر النهضة، وأصبحوا الأساتذة الذين ثقفوا العالم الحديث بنتاج العالم القديم »[1] .

وبذلك أصبحت هذه الحضارة الإنسانية شاهدًا ودليلاً على أهمية التسامح فى بناء الحضارات ؛ فالحضارات لا تقوم إلا حين تتآلف وتتداخل وتندمج الجنسيات المكونة للبناء الهيكلي للأمة التي تضمهم ؛ وهذا يتطلب أن ينظر الإنسان إلى الآخرين نظرة احترام وتقدير ، قوامها التسامح الديني والفكري. كذلك فقد تأكد من خلال المآثر العظيمة التى تركتها هذه الحضارة حتمية الأخذ والعطاء؛ فأي حضارة لا يمكن أن تقوم منفصلة عن غيرها من الحضارات؛ لأن هذا معناه أنها ستبدأ من نقطة الصفر، وبالتالي لن تتحقق النهضة المطلوبة ، فالنهضة الحقيقية تتحقق بالبدء من المرحلة التي وصلتها الحضارات المعاصرة لها والسابقة عليها ، وقبول ما تم إنجازه من نجاح عن طريقها ؛ وبذلك تتواصل رحلة النجاح الحضارى للإنسانية عبر التاريخ .

وهذا بطبيعته يتطلب عقولاً متسامحة مدركة تمامًا لما تريد، فاحصة لما تتقبل من المفيد من ثمار العقل البشري وإلا كان التكبر والعلو الذى يدفع بدوره إلى النفور ثم الإعراض والغرور الذاتى والظن بأن لدى كل حضارة ما يكفيها لإحراز التقدم، وهذا العكوف على الذات والنكوص عن قبول ما ينفع مما أنجزته البشرية يؤدي فى النهاية إلى مرحلة أكثر تخلفًا وأكثر انغلاقًا ، ثم يكون السقوط التاريخي الذي لا نهضة بعده .

ويمكننا من هذا القليل الذى عرضناه من صفحات تراثنا الإسلامى تأكيد حقيقة التسامح في الإسلام باعتبارها قوة لا يمتلكها إلا أصحاب الهمم العالية والنفوس القويمة التي تستقى منهجها فى الحياة من تعاليم الحنيفية السمحة، وتعرف أن التسامح فى الإسلام يهدف إلى تحقيق الخير للفرد والجماعة والجنس البشري كله .

---

(١) د. عفت الشرقاوي ، في فلسفة الحضارة الإسلامية ،ص ١٠٨، ١٠٩ .